

أنهلة عن تأييدها للجنوب ، فبقيت ثابتة على موقفها الى ان اندحر وانتهى الانفصال ، ولم يبط في عزيمتها ان عداها للشمال ادى الى ان يصبح مراسلها فيه اكبر شخصية اجنبية في الولايات المتحدة ، او انه مرارا كاد يتعرض الى الاعتداء عليه ، علاوة على ان الصحف الامريكية (الويل لن تعاديه) ظلت تهاجمه طوال سني الحرب ، غير آبهة ببراعته من موقف صحيفته بل وحتى مخالفته اياها في الاتجاه .

اما المثال الاخر فهو اقرب الى عهدنا ، وهو ايضا يكون فضلا من التاريخ المخجل لأكبر صحيفة بريطانية . ففي الثلاثينات انتهت التمايز الى الفئة من البريطانيين التي فضلت ان تسترضي هتلر على حساب تشيكوسلوفاكيا . ومع ان مراسلها الحربي آنذاك ، ليدل هارت ، الخبير العسكري المشهور ، ظل يكرر على رئيس التحرير مغبة هذه السياسة من الناحية العسكرية بحكم منصبه كمستشار الصحيفة في شؤون الحرب ، وحاول ان يبرهن على صواب رأيه بالدراسات التي أعدها للنشر ، الا ان التمايز لم تأبه لاعتراضاته التي دفعته الى تقديم استقالته من أزمته التحريرية ، بل انها رفضت حتى ان تنشر بعض مقالاته لان هذه الكتابات كانت تتعارض مع الخط الذي التزمت به : خط الاسترضاء والميوعة حيال هتلر وموسوليني .

بقي سؤال نهائي هو : لماذا غضبت الصهيونية على مايكل ادمز فاضطهده ولاحتته ، بينما أهملت مهاجمة ديفيد هيرست وغافن يونغ وغيرها من المراسلين المتصنين ؟ والجواب على ذلك ان كتابات ادمز كانت قد اكتسبت صبغة الحجة الصليبية ضد اسرائيل ، فالرجل كان حقا قد اثارته ما رآه في الارض المحتلة من اعمال بربرية قامت بها سلطات الاحتلال كهدم البيوت ومحو القرى من اساسها ، فأغاضت نبرة الغضب التي لاحت في لهجته انصار اسرائيل ، وكانت النتيجة انه فصل من منصبه وطورد . اما ديفيد هيرست ، فمع انه أنصف المقاومة الفلسطينية ولم يشوه أهدانها ، الا انه في الوقت نفسه ظل في تلك « المساحة » وحافظ على الهدوء في نبرة صوته ، ولم يتعرض لاسرائيل بنوع النقد الذي تخشاه .

ان حادثة مايكل ادمز هي باختصار ، مأساة الصحافة الغربية .

كثيرا جدا ، وليس هناك ما يدل على ان صحف القسم الاول على استعداد لخوض حرب صحفية صليبية ضد اسرائيل فيما لو ابتلعت الاخيرة المزيد من الاراضي العربية ، بينما لم تتردد هذه الصحف في الصراخ بأعلى صوتها عندما اختطف الفدائيون بضع طائرات . ولكن اذا كان الفرق ليس كبيرا بين صحف القسمين في السياسة التحريرية ، فالفرق بين مراسل وآخر يجب الا يستهان بأهميته . وفي السنوات الاخيرة برز صحفيان غربيان لتجردهما من التحيز ولعمق تحليلهما ، هما ديفيد هيرست مراسل الغارديان في البلاد العربية ، وغافن يونغ مراسل اوبزرفر (ايضا في البلاد العربية) والتساؤل الذي يطرح نفسه الان : كيف تكون رئاسة تحرير صحيفة ما آخر من يستفيد من تحليلات واستنتاجات مراسلها الخاص ؟ والجواب على ذلك هو ان السير حسب الخط المرسوم مسبقا للصحيفة يفوق في الاهمية التأثيرات الناجمة عن تقارير مراسلها . ان هذا هو ليس مجال الخوض في موارد الصحف الغربية من الاعلانات ، ولا في السلطة التي توجد بيد اصحاب الاسهم او اعضاء مجلس الادارة ممن قد تكون لهم مصالح خاصة تدفعهم الى تأييد اسرائيل ، ولكن لا بأس اذا أردنا امثلة سريعة من تاريخ الصحافة البريطانية لتعزيز الرأي القائل بان المصالح العليا لاية صحيفة هي التي ترسم لها الخط الذي تلتمز به ، وليس تقارير المراسلين ولا الزاوية والموضوعية .

ثناء الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) كانت اقلية الرأي العام في بريطانيا ، لاسباب اقتصادية ، تؤيد الجنوب الكونفيدرالي في حربه الانفصالية ضد الاتحاد الشمالي الذي كان ابراهام لينكولن يترأسه . وكانت التمايز اللندنية (آنذاك ليس فقط اهم صحيفة في بريطانيا وانما اكبرها نوزعا ايضا) تعطف بدورها على الجنوب وتؤيده في سياسته الانفصالية . ومع ان مراسل التمايز في امريكا كان هوارد رسل ، الرجل الذي اشتهر بأنه اول مراسل حربي في التاريخ . وكانت تقاريره الى صحيفته (وكذلك رسائله الشخصية الى رئيس التحرير ديلين) تتميز ببيله الواضح الى الجانب الشمالي لتفهمه موقف حكومة لنكولن وتعاطفه مع سياستها ، الا ان التحليلات الصائبة لاشهر مراسل في ازمته التحريرية لم تزحزح التمايز قيد